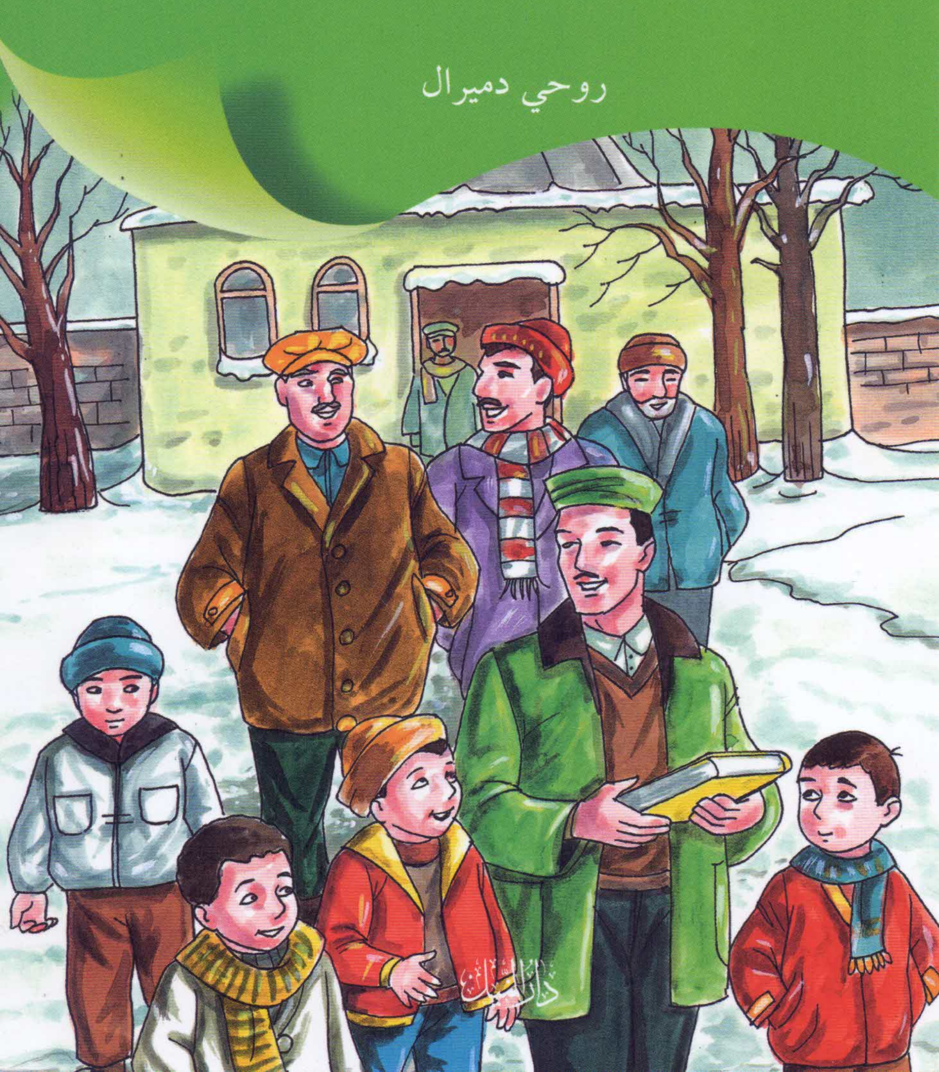
قصص مكارم الأخلاق

براعم الثلج

روحي دميرال



قصص مكارم الأخلاق

براعم الثلج

كان الإمام حسن يتسامرُ مع شباب القرية كلما سنحت الفرصة، ويذهب إليهم بنفسه ولا ينتظر مجيئهم إلى المسجد، فيستمع إليهم أولًا، ثمَّ يبدأ بالحديث، ويزورهم في حقولهم ليشْرح لهم مَبادئَ الدِّين الإسلاميِّ.


ISBN: 978-975-315-630-1



براعم الثلج


بسم الله الرحمن الرحيم

براعم الثلج

تأليف

روحى دميرال

ترجمة

ياسمين محمود عبد الغني

براعم الثلج

قصص مكارم الأخلاق -٥

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

د.عبد الجواد محمد الحردان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

غلاف وتصميم

ياووز يلماز

رقم الإيداع ISBN:978-975-315-630-1

رقم النشر

506

I IK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Ba cılar Cad. No:1

sküdar - stanbul / Türkiye 34696

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي

– خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة – مصر

5-Tel & Fax: 002 02 26134402

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

فهرس

الفخّ

في وقت متأخر من الليل، خيَّمَ على الجبال صمتٌ عميق، وكانت هناك قرية جميلة تقع عند شاطئ الوادي مباشرة، فمناخ هذه القرية معتدل بالنسبة لجو القرى الجبلية، إلا أن القرويين الذين يعملون في الزراعة كانوا يضطرون للتوقف عن العمل مدة شهر أو شهرين إذا دخل الشتاء، وينتظرون بفارغ الصبر ذوبان الثلج وحلول وقت تقليم الأشجار.

وعمَّتْ الضوضاءُ المنزل ذا الطابقين، فأفسدت صمت الليل، فاستيقظ السيد محرَّم على صوت هذه الضوضاء، واسترق السمع إلى الأصوات التي سمعها ثم قال:

- يا إلهي! ما هذه الأصوات في هذه الساعة؟

إنه صوت صياح الدجاج... نهض من فراشه فورًا، ثم جرى نحو النافذة على ضوء السهَّارة، وأمسك الستارة بتوتر وسحبها بسرعة، قرَّب وجهه نحو زجاج النافذة ونظر إلى الأسفل، وكأنه

يثقب بعينيه الظلام الدامس، كان كلّ مكان مغطًّى بالثلج كما أنَّ سواد الليل قد لف بياض الثلج بجو من الغموض.

فتح مُحَرَّمٌ البقالُ النافذةَ ولكنه لم ير أي شيء، هبّ هواء بارد مثل الثلج، فمدّ جسده الضخم من النافذة إلى الخارج، واستمرَّ في النظر يمينًا ويسارًا، والدجاج لا يزال يصيح.

البقال:

- سيكون من الأفضل أن أنزل.

تراجع وأغلق النافذة وأسدل الستارة، مرّ من أمام زوجته واتجه نحو الباب، ثم أخذ معطفه وقبعته الصوفية مِنْ على الحائط، وخرج بهدوء، نزل إلى الطابق السفلى، ثم أخذ المصباح وأشعله بالكبريت الذي أخرجه من جيبه، ففتح باب الحظيرة على ضوء اللهب المرتجف وألقى نظرة إلى الداخل.

كان في الحظيرة عشر دجاجات هُرِعن جميعهن إلى نفس الزاوية، متصايحات من شدة الخوف وكأنهنّ يدركن ما سيقوله السيد محرم عندما يرى حالهن:

السيد محرم:

- ما الخَطب يا سيدات! ماذا حدث؟ ما الذي دفعكنّ لإحداث هذه الضوضاء في منتصف الليل؟

وازدادت قوة الضوء بتوقف اهتزاز اللهب المندفع من أثر الرياح، وعندما التفت محرم البقال إلى الجهة التي تنظر إليها الدجاجات، ارتعش واتسعت عيناه من الدهشة واستجمع نفسه قائلًا:

- هل نسيت إغلاق هذه النافذة بعد الظهيرة؟

تقدَّم سريعًا خطوتين نحو الجدار، وصعد سلمًا كان قد أعدَّه لدخول الدجاج وخروجه، ثم وَقَفَ على أصابع قدميه ونظر إلى الخارج من النافذة الصغيرة، وحاول أن يتذكر ما فعله بعد الظهيرة، ولم يلاحظ أنه يرفع صوته بما يفكِّر فيه، يقول:

- وضعت الماء هنا في بادئ الأمر، وأتذكر أنني نثرت العلف على الأرض، كما أتذكر أيضًا أنني استدعيت الدجاجات... عندما انصرفن إلى الداخل ماذا كنت أفعل؟ حسنًا، تذكرت! كنت قد نزحْتُ الماء من البئر للبقرة، وبعد ذلك...

نظر محرّمٌ البقالُ بدقة نحو نقطة ما، وظلّ ينظر مدة ثم ضرب بيده على ركبته فجأة وقال:

- بالطبع، كان الإمام حسن يمرّ من حافة الحديقة، ذاهبًا إلى المسجد لكي يؤذن لصلاة المغرب، فذهبتُ إليه وقلت:

- تعال نذهب إلى المسجد معًا، وقد نسيت في تلك الأثناء أن أغلق النافذة، يا لَلويل!

غضب محرَّم البقال من نفسه وانصرف إلى الخارج، ثم دارَ ومرّ من الجهة الأخرى للنافذة.

بدأ يتفقد آثار الأقدام على الأرض وهو يبحث عن شيء في آثار قدميه وفي آثار الدجاج، وفي نهاية الأمر قال بانفعال:

- هذه هي، إنها لَآثار ذلك الحقير، لم يضيّع الفرصة قطّ!

نهض على قدميه وتعقَّب بعينيه الآثار التي يكشفها الضوء على الأرض، ثم دخل إلى الحظيرة مرة أخرى وبدأ يحصي الدجاجات بأسمائها:

قمقم، قُوَيق، مسكينة، حنون، حميدية، بغداديّة، «كوكو»... أين «كوكو»؟

حدق في الدجاجات أكثر، وكانت عيناه تبحثان عن «كوكو» التي تستحسن أكل العلف من يده، ولكنّ «كوكو» لم تكن

عند الزاوية، فغضب محرم البقال وصاح: سرق اللص الحقير أجملهنّ، إن لم أحاسبه على ما فعله فلا تنادوني «سيد محرم».

أغلق النافذة وصعد وهو يتمتم، وعندما دخل الحجرة بهدوء وجد زوجته في انتظاره، ودون أن يعطيها فرصة لطرح أي سؤال قال:

- لقد سُرقت «كوكو» قبل قليل، وهذه هي الثامنة، علينا أن نجد حلًّا وإلا فلن يتبقى دجاج في الخُمّ!

لم تقل زوجته شيئًا، فخلع محرم البقال معطفه وقبعته وأَوَى إلى فراشه، ثم تدثّر بالغطاء حتى رأسه وزوجته تنظر إليه مندهشة، وبينما كان يحاول أن ينام راح يفكر فى خُطّة لفخ سينصبه في اليوم التالي.

في هذه الأثناء سُمع صوت شجيّ! إنه صوت الإمام حسن يدعو الناس مؤذّنًا لصلاة الفجر، اعتدل محرم البقال في جِلسته وما زالت زوجته تجلس على الفراش، فالتفت إليها قائلًا:

- أنا ذاهب إلى الصلاة يا زوجتي، وسوف أنصب عند عودتي فخًّا رائعًا لذاك اللصّ، سوف ترين... سأقبض عليه خلال

يوم أو يومين، وسأخسف به الأرض ردًّا على ما فعله بدجاجتي المسكينة.

لم تقل زوجته شيئًا، وأخذت تردِّد الأذان.

نهض محرم البقال وتوضأ، ثم غيَّر ملابسه وشقّ طريقه إلى المسجد، كان الثلج قد تجمد من تحت قدميه، فيصدر من تحت رجليه صوت خشخشة مع كل خطوة، إلا أن محرَّمًا البقال كان لا يفكر إلا في «كوكو»، ويتمتم في نفسه قائلًا:

- حقّك عليّ، فكلّ هذا حدث بسببي، لو أني أغلقتُ تلك النافذة لَأكلتِ علفك من يدي مع طلوع الشمس.

وصل إلى المسجد ودخل بقدمه اليمنى قائلًا: «بسم الله»، وهو ثاني من حضر إلى المسجد، وها هو الإمام حسن يصلي الركعة الأولى من سنة الفجر بجوار المدفأة التي أشعلها... ابتسم محرم البقال حتى إنه نسي «كوكو» وأخذ يصلي عند الجانب الآخر للمدفأة، ولما كبَّر نسيَ الدنيا وما فيها، وراح يناجي ربَّه:

«ربِّ اغفر لي ولوالدَيّ، ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا».

الواجب المنزلي

أمّ الإمام حسن الناس في صلاة الفجر، ثم تحاوروا قليلًا بعد الصلاة، وما إن تفرقت الجماعة حتى وصلت أشعة الشمس الأولى إلى قِمَمِ جبال قرية «نوى».

بدأ الإمام حسن في السير نحو منزله من طريق مغطًّى بالثلج، وبينما هو يمشي رأى شيئًا عجيبًا عند مقدمة الطريق، استكفَّ عينيه من ضوء الشمس الذي يضرب في وجهه ونظر بدقَّة، فإذا بشخص جالس على إحدى ركبتيه فوق الثلج، ثابتٍ في مكانه دون حركة.

تشوّق الإمام حسن لمعرفته قائلًا:

- يا ترى من هذا؟

أسرع في خطواته واقترب أكثر فأصابته الدهشة أمام المنظر الذي رآه، لقد رأى طفلاً في العاشرة من عمره يكتب في دفتر وضعه على حقيبته الجلدية.



- ماذا تفعل هنا يا خليل؟

اعتدل خليل في جِلسته وقال بخجل:

- لا شيء... كنت ذاهبًا إلى المدرسة، وتذكرت في الطريق أنني لم أقم بكتابة واجبي المنزلي، فإذا عدت إلى المنزل لكتابته هناك فسأتأخر عن الدرس كثيراً، ففكرت قائلًا: لم لا أقوم بكتابته هنا؟ إنه في الأصل حوالي نصف صفحة، وقد انتهيت منها الآن.

تبسَّم الإمامُ حسن وجلس بجوار خليل وقال:

- أليس غدًا هو آخر أيام الدراسة؟ فإذا ذهبت إلى المدرسة ولو مرة دون أن تؤدي الواجب المنزلي ما الذي سيحدث؟ وأنت أفضل تلميذ في الفصل كما سمعْتُ، حتى إنّ المعلم زكريا يحبّك كثيرًا، فلا أعتقد أنَّه سيعاتبك.

وضع خليل دفتره في حقيبته ونهض على قدميه ماسحًا ركبتيه بيديه وأجاب وعلى وجهه علامات الغضب:

- وإن كان آخر يوم في الدراسة... بل لو كان آخر يوم في الدنيا فلا يهمني هذا يا عمّ حسن، إني لم أذهب حتى اليوم إلى المدرسة دون تأدية واجباتي المنزلية، وكما قلتَ.. في الحقيقة

معلمي يحبني كثيرًا، ولكني اكتسبت هذا الحب بسلوكياتي ولن أضيعه بسهولة.

استمع الإمام حسن لهذه الكلمات بإعجاب، وبدأ خليل في الجري نحو مدرسته حاملًا حقيبته على ظهره.

- خليل!

توقف خليل واستدار بكل جسده ونظر إلى الإمام حسن.

- يا خليل! سوف نبدأ دورة في المسجد يوم السبت، اليوم الأول من عطلة الفصل الدراسي، سأقوم بتعليم القرآن لأطفال القرية في المسجد بعد صلاة العصر وسيأتي جميع أصدقائك إلى هذه الدورة... فما رأيك أنت؟

لم يجب خليل، فقال الإمام حسن:

- ألا ترغب أنت أيضًا في تعلم القرآن الكريم؟ لم تحضر الصيف الماضي، مع أني أنظمها من أجلك، فإذا لم تتعلم في هذه السن ألن يكون الأمر صعبًا عليك فيما بعد؟

أمال خليل رأسه جانبًا وثنى شفتيه وقال:

- أنا متأخر عن المدرسة يا عم حسن.

استدار فجأة واستمر في الجري بينما يتابعه الإمام حسن وهو حزين لأمره، وتمتم في نفسه:

- اللهم حبِّب هذا الطفل بالمسجد واملأ قلبه بحبِّك، واجعله عندليب القرآن.

الثعلب

- بسـرعة يا أطفال! لقد أمسـك السـيِّدُ محرمٌ بالثعلب الذي يتردَّد على خُمّ الدَّجاج، وسينقله الآن إلى ساحة القرية.

وفـي هـذه الأثنـاء كان الأطفال يصنعـون رجلًا من الثلج في حديقة المدرسة، فالتفتوا إلى مصدر الصوت.

كان خليل يجري في الطريق بجانب الحائط، ويصيح:

- مَسَكُوا الثعلب، مَسكوا الثعلب!

نظر بعض الأطفال إلى بعض فجأةً، وكأنّ نظراتهم تقول:

- ماذا نفعل الآن؟ تردَّدوا بين أن يُكمِلوا صناعة رجل الثلج وبين الذَّهاب إلى ساحة القرية.

أخذ بسْطاميٌّ بيده المرتعشة قطعة فحم -وكان كفُّه قد ازْرَقَّ من شدَّة البرد- فوضعَها على رأس رجلِ الثلج، وقال بلا مبالاة:



- لا تصدِّقوه، فهو يظنّ أنه سيشغَلُنا عن ألعابنا؛ فالعمّ حسن شيخ كبير لا يقف على قدميه إلا بصعوبة، فكيف له أن يُمسك بالثعلب؟

نهض حسامُ الدِّين وقال:

- خليل لا يكذب أبدًا، فلم أسمع منه حتى اليوم كذبةً ولو مزاحًا، فأرى أن نذهب إلى ساحة المدينة، فقد بردت أيدينا.

كان بسطاميّ ينظر إلى رجل الثلج تارة، وإلى أصدقائه تارةً أخرى، ومن المتَّفق عليه أنهم جميعًا يَهمهم أمر الثعلب، ولا حلّ سوى إتباع رأي الأغلبية، فراحوا يقذفون عشوائيًّا ما جمعوا من الفحم ليصنْعوا أزرارًا لصدر رجل الثلج.

- حسنًا، فلنذهب إذاً!

اندفع خمسة منهم فجأة، وراحوا يقفزون على ثلجٍ يبلغ سمْكُه مترًا واحدًا، ويتدافعون ويحاول بعضهم رميَ بعضٍ على الثلج.

تزيَّنت قرية «نَوَى» بظهيرة مُشمِسة في يوم من أيام الشتاء، وهي قرية جميلةٌ جدًّا، فهي تقع وسط أشجار الثلج.

بدأ هذا الغِلاف الأبيض على غصون الأشجار يذوب رُوَيدًا رُوَيدًا مع شروق الشمس، وتجمَّد نهر «بَرَدَى»، وحجبَت طبقة الثلج السميكة النهرَ عن العيون؛ فلا شيء يوحي باستمرار الحياة سوى أوراق الأشجار الخضراء والجبال؛ أما أشجارُ الكرز في أسفل الوادي فما عاد يُرى فيها كرز، وكأنها تنتظر الأيام التي ستعيد إليها الحياة، ألَا وهي أيام فصل الربيع.

كان الجو حارًّا في المقهى، فلاذَتْ بعض العصافير بإطار النافذة الخارجيّ، فالمدفأة الرمادية تتوسَّط الناس بأزيزٍ كأنّه أنين الطفل؛ وهناك ثلاثةٌ اجتمعوا في الزاوية ليَتَحَدَّثُوا، تحدَّث أحدهم، فظهر عليه أنَّه ليس قرويًّا، وكان الآخرون يستمعون إليه باحترام، فتحرّك شاب تَعَمَّم بقبعة، وقال:

- في الحقيقة، إنَّ ما قَصَصْتَه علينا، طَمْأَنَنا يا إمام، ولكنْ هناك شيءٌ أريد أن أسألك عنه.

الإمام حسن مبتسمًا:

- وما هو؟

وبينما كان الشاب يريد أن يسأل صاح أحدهم، فنهضوا جميعًا، وركضوا نحو النافذة، فانْفعل نهادٌ صاحب المقهى، وصاح:



- يا إلهي! لقد أمسك العمُّ محرَّم بالثعلب؛ فخرج كلُّ من رأى هذا المشهد يجري، فامتلأت الساحةُ بالنَّاس، أغلبُهم من الأطفال، وفي منتصف الساحة ثعلب مرْبوط من قدميه بحبل قديم، وكان يبدو لطيفًا جدًّا في فَرْوه الأصهب، وجسده الصغير، وراح ينظر إلى مَن حولَه بعينين خائِفَتين.

العمُّ مُحرّم:

- أنت مثل الجرادة، تهجم مرَّةً، ثم تهجم أخرى، ولكنْ في النهاية يُمسَك بها؛ والآن أخبرني يا عدوَّ الدجاج، ماذا عليَّ أن أفعل بك؟

اتجهت العيون نحو محرَّم البقال الذي يتحدث، حتى إنّ الثعلب لم تنقطع نظراتُه عن ذلك الرجل الغَضُوب.

البَقَّال:

- سأسْلخُ جلدك! ولكن ما الفائدة؟ فهل ما ستناله من عقاب سيعيد لي الدجاجاتِ؟ طبعًا لا، لن يعيدها، ولكن على الأقلِّ ستشعر الدجاجات الأخرى بالأمان.

خطا بسطامي خطوة نحو الأمام، ثم انْحنى وأخذ من الأرض ثلجًا مختلِطًا بالجليد مِلء كَفّه، وضغط عليه،

ثم قفز بسرعة ورمى الثعلب بكرة الثلج، والناس جميعًا ينظرون مندهشين، فتألّم الحيوانُ وضبَح بصوتٍ عالٍ، فضحك الأطفال؛ فتشجَّع بسطامي، وانْحنى ليصنَع كراتِ ثلجٍ جديدة، فإذا بيدٍ تُمسك يده بشدّة، فاعتدل في جِلسته بسرعة، فإذا به خليل، فتبادلا النَّظرات، وساد الصمت الميْدانَ، فقطّب خليل وجهه، وصاح في وجهِ بسطامي:

- ماذا تفعل؟

عبس بسطاميّ، وحاول ألَّا يظهرَ لخليل ما أصابه من ألم في ذراعه.

بسطامي:

- ألا ترى ما فعلتَ؟

قطّب خليل وجهه مرةً أخرى، وضاقت عيناه السوداوان، وبدَت عليه الهيبة، ولَكَز بسطاميَّ لَكزةً خفيفةً، وهمس في أذنه:

- إيَّاك أن تفعل هذا مرة أخرى.

خاف بسطامي، وتراجَع وكأنه يلوذ بالزِّحام، ثم أمسك بيده ذراعَه التي تؤلمه، فانحنى رجل من الخلف -وهو الإمام حسن- فهمَس في أذن بسطامي:

- خليل على حقّ يا بسطامي! انظر، لقد زدت آلام الحيوان الجريح، ويبدو أنَّه نال عقابًا أكثر مما يستحق، صدِّقني! الزيادة في العقاب ظلم، فلا تَنْزعج من خليل لأنَّه منعك من هذا.

كان الثعلب يرقد على الأرض، فنظر إليه بسطامي ثم التفت إلى خليل، ونَسِي الجَمْع أمرَ الثعلب، فراح الثعلب يتابع ما يجري.

هزَّ بسطامي رأسه، فتبسّم الإمام حسن، وداعب شعر ذلك الطفل القرويَّ المشاكسَ، وقال:

- أحسنت يا بسطامي، هذا هو ما يليق بك.

وفي هذه الأثناء سُمع صوتُ محرَّم البقال مرةً أخرى، وهو يقول:

- يا رمضان، اسلخ جلده بسرعة.

فنظر رمضانُ إلى الإمام حسن وقد تأثَّر بحديثه في المقهى قبل قليل، والتفت نحو محرمٍ البقَّال، وقال:

- أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر يا خالي؛ وكان الإمام حسن ينظر إلى الثعلب ناكِس الرأس، وعلاماتُ الحزن بادية على وجه الإمام.

نظر محرم البقالُ فيمن حوله، وكأنه يبحث عمَّن يستطيع سلخَ فروِ الثعلب، فتقدَّم الإمام حسن إلى الأمام واتّجه نحو رأس الثعلب، وجلس على الأرض، وأمسك بِرِجْل الحيوان الجَريْح، وقال:

- يا عم محرَّم! ماذا ستفعل بفرْوه هذا؟ فحالُ الحيوان مُحْزنٌ، وفروُه لن يفيدك شيئًا، وإذا كنت تريد التخلَّص من هذا الحيوان فسلّمه لي.

محرَّم البقالُ متعجبًا:

- وماذا ستفعل بعدوِّ الدجاج هذا؟

-لا تَهْتَمّ بهذا، فعندي فكرةٌ مناسبة... هل ستسلّمه لي؟ هيا أخبِرْني.

- سأسلِّمه، لكن أخشى أن تطلق سراحه؟

- ماذا سيحدث إذا أطلقت سراحه؟

- ماذا تقول يا إمام؟ إنه لصٌّ، إنه لصٌّ، لقد أكل ثمانيًا من دجاجاتي حتى الآن، فهل أضَحِّي بباقي الدجاجات؟

الإمام حسن وهو يضحك:

- لا تقلق يا عمّ محرم! إنَّ هذا الحيوانَ المسكينَ لن يقتربَ من دجاجاتك مرَّةً أخرى.

كان محرمٌ البقَّالُ شخصًا غضوبًا، ولكنَّه سرعان ما يقْتنع، وكان يصعب عليه أن يقول كلمةَ «لا» لأحد، وخصوصًا للإمام حسن، فهو لا يستطيع مجادلته ألبتة، فتبسم وقال:

- حسنًا، خُذْه معك، ولكن أقول لك سلَفًا: إذا رأيت هذا الثعلب يقترب من دجاجاتي، فأنت المسؤولُ عن ذلك! اتَّفَقْنا؟

- اتفقنا يا عمّ محرّم، ولكن احذر أنت أيضًا، فدجاجُك يصيح عند وضْع البيضِ، فتزدادُ شهِيَّة الثعالب التي تعاني من الجوع عند نزول الثلج.

ضحكوا جميعًا، وحمل الإمام حسن الثعلب، وسلك الطريقَ نحو منزله، دون أن يهتمَّ بنظراتهم، ثمَّ انصرفوا، وبقيَ خليل يُتْبِع بصره الإمامَ حسنًا، ثم مشى وراءه.

تمتم الإمام حسن وهو ينظر إلى الثعلب:

- آه يا مسكين! من الواضح أنك لم تفعل شيئًا لنفسك، ألا يشْعر هؤلاء الناس بالحنان الذي يملأ قلبك، ستعيش بعد ذلك

في أمان، وأنا سبب كل ما حدث، ثم وصل إلى المنزل، وبينما هو يدخل من الباب، لمحَ خليلًا يمشي خلْفه.

- مرحبًا يا خليل، خيرًا! إلى أين؟

تلعثم خليل وتوتّر، ثم قال:

- إلى المنزل.

الإمام حسن وهو يبتسم:

- في الحقيقة، إنّ مواجهَتك لبسطامي في المَيدان كانت تصرُّفًا طيبًا منك، ولولا أنك تصرَّفت هكذا، لشاركه الأطفال الآخرون، فكيف سيكون حال هذا المسكين عندئذ؟ أحسنت يا خليل، لقد تعلَّمتَ خُلُقَ رسولنا ﷺ جيِّدًا، يقول النبي ﷺ: (**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمُكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ**)، ما أعظم أجرك عند الله على إنقاذك للثعلب!

كان خليل ينظر إلى الثعلب، وتظاهر وكأنه يسأل الإمام حسنًا شيئًا، ثم تركهُما واستمرَّ في السير، فناداه الإمام حسن:

- يا خليل! تبدأ اليومَ دورةٌ في المسجد بعد العصر، وسنسْتمر طوالَ إجازة نصف السنة، ستأتي، أليس كذلك؟

لـم يجبْـه خليـل، فنظـر الإمام حسـن إلـى خليـل، وبينما هو يدخل المنزل تمتم قائلًا:

- لم أستطع أن أفهمَ أمرَ هذا الطفل، إنه يهْرب منَّا جميعًا، وكأنَّه يعيش في الدنيا وحده.

وضع الإمام حسـن الثعلبَ على الأرض في سـاحة المنزل، وقام بتنظيفه ومداواة جرحه، ثم أحضَر له شيئًا من الطعام، وقبل أن يخرج رجع إلى الوراء وقال:

- إن شـاء الله سـتتعافى غدًا، هيَّا كُلْ، تناولْ طعامَك، فأنت محتاج لهذا.

خـرج الإمـام والثعلـب يراقبـه ببصـره وكانت تلمـع في عينه أنوار تسللت إليه من ثقب الباب.

كان الإمـام حسـن يتسـامرُ مـع شـباب القريـة كلمـا سـنحت الفرصـة، ويذهـب إليهـم بنفسـه ولا ينتظر مجيئهم إلى المسـجد، فيستمع إليهـم أولًا، ثـمَّ يبـدأ بالحديـث، ويزورهـم فـي حقولهم ليشْرح لهم مَبادئَ الدِّين الإسلاميِّ، ومنهم من تشغله أعماله عن المسجد في فصْل الصيف لكنه إذا رأى الإمام توقف وجلس إليه



تحت ظلِّ شجرة ليستمع إليه ويحاوره، فإذا حان وقت الصلاة عاد الإمام حسن إلى المسجد.

اهتمّ الإمام حسن بأطفال القرية، اشترى لهم كرة قدم، وعندما يكون الجوُّ معتدلًا يأخذ الكرةَ، ويدعو الأطفال للمباراة في ساحة المدرسة، ويمرر الكرة للأطفال ويسمح لهم بتسجيل هدف ليكسب قلوبهم، ويخرج معهم إلى المروج في أيام العطلة، وينظم لهم رِحْلاتٍ إلى الحدائق، فيأكلون، ويشربون، ويلعبون، ويتحدثون تحت ظل الشجرة، وكانوا يسألون والإمام حسن يجيب ويشْرح بحَماس، وإذا حان وقت الصلاة أمرهم جميعًا بالعودة إلى القرية ليصلوا معًا في المسجد.

لم يشْترك خليل في هذه الأنْشِطة، وفضّل مشاهدة أصدقائه وهم يلعبون في ساحة المدرسة؛ كان خليل مِن العشائر التُّركية، التي تعيش في الجبال، عاش في الجبال حتى السابعة، ولم يَرَ حتى هذا السنِّ سوى عائِلته، وبعض الشباب الذين يأتون إلى الجبل أحيانًا، فاعتاد على الوحدة، وإذا بدأت الدراسة تركه والده عند خاله في قرية نوى ليذهب إلى المدرسة.



أحبَّ خليل مَدْرستَه ومعلِّمَه كثيرًا، وسرعان ما أصبحَ أفضلَ تلميذٍ في الفصل، وظلّ هكذا حتى الصف الخامس، كان ذكيًّا مجتهدًا صاحبَ أخلاقٍ رفيعة، قال عنه الأستاذ زكريّا:

- كان تلميذًا ذا شخصِيّة طيبة وقلبه أبيض من الثلج.

يحكي المعلم للإمام حسنٍ عن تفوق خليل، وكان الإمام يتمنَّى مجيء خليل إلى كُتَّاب المسجد، إلَّا أن خليلًا لم يلتحق

بـه، وعندمـا تنتهـي الدراسـة يحـزم أمتعته ويذهب إلـى والده في الجبل لِيرعى الغنمَ طوال عطلة الصيف؛ فلهذا قرَّر الإمام حسن افتتـاح كتّـاب خـلالَ العطلـة في منتصَـفِ العام الدراسـيّ، لِيَتعلَّم خليـل أثناءهـا القـرآن الكريم، إلا أنَّـه لم تبْدُ على خليل رغبةٌ في ذلك حينئذ.

والإمـام حسـن مـن عادتـه أنه إذا فعلَ شـيئًا أتقنـه، فلم يترك خليـلًا ولـم يغضـب منـه، بـل كان يدعـو اللهَ لـه دائِمًـا، ويتمنَّـى له الخير.

مكر الأطفال

حسامُ الدين:

- أيُّها الأصدقاء ضعوا هذا الغطاء على الحُفْرَة بسرعة، ورشّوا فوقه شيئًا مِن الثلج لكي لا ينتبه أحدٌ إلى الفخ.

وضَعَ الأطفال طبقةً رقيقةً من الثلج فوق الحُفْرَة، فتبسم بسطامي وقال:

- والله لو أنني سِرتُ من بداية الطريق الرئيس إلى هذا الجانب لَمَا استطعتُ أن ألاحظ هذا الفخ؛ أيُّها الأصدقاء: لقد أنجزنا عملًا رائعًا، هيَّا حان الوقت لنختبئ الآن، وسيظهر الإمام حسن بعد قليل.

ركضوا جميعًا، وقفزوا مِن على سُور حديقة المدرسة، واختبؤوا وهم يضحكون، وفجأةً تمتم حسامٌ:

- توقفوا عن الضحك، فالإمام حسن قادم.



ظهر الإمام حسن عند بداية الطريق وهو يُنْشِد الأناشيد الدينية، ويمشي بهدوء؛ لأن الطريق قد تزلّج من كثرة مشي الناس عليه، اقترب من المدرسة كثيرًا فظهر له رأس حسام الدين، استمرَّ في السير وكأنه لم يرَه، وتمتم في نفسه:

- يا لَكم من أشقياء، مَن يعرف ماذا خططتم لي هذه المرة؟ سآخذ حِذْري منكم، سأثبِتُ أنّكم ضعفاء، فانتظِروا، وخرَّ كأنّه ساجد على الأرض متظاهرًا بأنَّ قدمه تزحلقت، وراح يكَوّر الثلج في يده على شكل كُرات، فعل هذا مرَّات ومرَّات وهو يحاول إخفاء ما قام به، ووضع الكُرات في الجَيْب الخارجي لمعطفه، ونهض على قدميه، وسار بخطوات هادئة وكأنّ شيئًا لم يكن، ولما وصل السُور الذي اختبأ عنده الأطفال، انهارت الأرض التي وطئ عليها فجأةً، فتعجب مما حلَّ به، وانقلب رأسًا على عقب، غاصت إحدى قدميه في حفرة تُقَدَّر بنصف متر.

الأطفال:

- (هجوم)!

نهض الأطفال على صوت حسام الدين، وأخذوا يقذفون الإمام حسنًا بِكُرَاتِ الثلج التي جمعوها.

ولما رأى الإمامُ كثافة كُرات الثلج تتقاذف عليه تِباعًا -وهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا ولو أن ينهضَ على قدميه- صرخ:

- استسلمْتُ، لقد انتصرتم ثانيةً، كفى، كُفُّوا عن القذف، استسلمْت، استسلمْت.

رمى الأطفال ما في أيديهم من كُرات الثلج، وأسرعوا نحوه مسرورين! وراح هو يَنْفُضُ الثلج الذي ملأ صدره، وأخرج ما كوَّره من كُرات ثلجيَّة لم تُتَحْ له فرصةٌ لِرميها.

حسام الدين:

- قَبِلْنا الهدنة، والآن سنتحدث عن شروط المعاهدة.

الإمام حسن:

- ماذا تريدون هذه المرَّة تعويضًا عن الحرب؟

بسطامي:

- طبعًا أنت تعرف، نريد نَقانِق السُّكّر، لكلّ شخص مائة غرام.

حسام الدين:

- وعليـك أيضًـا أن تدعـو جميع الأطفـال عصرًا بعد الدورة إلى تناول الفاكهة.

الإمام حسن معترضًا:

- ولكـن هـذه لا تسـمى معاهـدةً، هـذا ابتـزازٌ واضـح! ألا تعلمون كم ثمن الفاكهة فى الشتاء؟! وأيُّ كمية من الفاكهة تكفي لعشرين طفلًا؟!

حسام الدين بتحدٍّ وشجاعة:

- لا شأن لنا بهذا، فأنت الذي استسلمت، وانهزمت هزيمة ساحقة، إذًا فأنت مضطر الآن لقبول شروطنا.

الإمام حسن محاولًا مقاومتهم:

- لا تكونـوا ظالميـن لهـذه الدرجـة، وأنتم إنمـا انتصرتم في هذه الحرب بالخدعة فقط، فحفرُ فخٍّ في الطريق خدعةٌ لا محالة.

حسام الدين متبسمًا:

- ولكنكم قلتم: إن الحرب خدعة.

لم يجد الإمامُ حسن جوابًا واضطرَّ إلى قبول الشروط.

الإمام حسن:

- حسنًا لا طاقة لي بمجادلتكم، ولكنني لن أتهاون معكم ثانية، سترون في المرة القادمة كيف سأنتصر.

وساروا جميعًا نحو دكان رجب البقال، وهم في منتهى السعادة.

أُقيمت صلاة العصر وتابع الإمام حسن الجماعة وهي تخرج من المسجد، وبدأ يبحث عن خليل؛ لم يخرج الأطفال من المسجد وتحلَّقوا في مجموعات صغيرة، إلا أن خليلًا لم يكن معهم، فحزن الإمام حسن وهزَّ رأسه يمينًا ويساراً، وتمتم: يبدو أنه لن يأتي، ثم نهض وخلع جبته وعمامته ووضعهما في الخِزَانة، واتجه نحو الأطفال.

وتلاقت عينا الإمام حسن وحسام الدين، وفي عيون الإمام حسن أسئلة كثيرة...

مال حسام الدين برأسه، ونظر إلى الأرض وتمتم قائلًا:

- أصررتُ عليه كثيرًا يا أستاذي، ولكنْ أبدى أنه لا يستطيع المجيء، إذ إنّ عليه مساعدة زوجة خاله في المنزل، ولا أعتقد أنَّه سيأتي في هذه العطلة.

الإمام حسن:



- ماذا نفعل؟ سنبدأ الدورة بدونه، هيا يا أطفال تجمعوا هنا، هيا لأبلغكم قبل أن أنسَى، إنني أدعوكم للفاكهة بعد الدورة تعويضًا عن الحرب.

ضحكوا جميعًا، وركضوا نحو المكان الذي أشار إليه الإمام، وجلسوا ينتظرونه، وقد فتحوا كتبهم، وتهيؤوا للدرس بحماس رائع.

أشار بسطامي إلى الغطاء الأخضر بجانب المحراب سائلًا:

- أستاذي ماذا تحت هذا الغطاء؟

نظر الإمام حسن إلى بسطامي، وتبسَّم قائلًا:

- إنها هدية تنتظر صاحبها، ولكن لي عندكم رجاء، لا تنظروا إليها حتى يحين وقتها، سيأخذ صاحب الهدية هديته عاجلًا أم آجلًا، ونظر الإمام حسن إلى وجوه الأطفال البريئة واحدًا واحدًا، فرأى في أعينهم بريقًا يستثير ما في الإنسان من عاطفة جيَّاشة بالحب والحنان والرحمة.

بدأ الإمام حسن بالحديث متبسمًا:

- في هذه اللحظة المباركة يجتمع خير الناس، أتعرفون من هم؟

أنا وأنتم، يقول رسولنا الحبيب ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه**»، وأنتم أتيتم إلى هذا المسجد لتتعلموا الرسالة التي أرسلها **الله** ﷻ إلينا، هل هناك عمل أفضل من هذا؟

كان الأطفال ينظرون إلى الإمام حسن بانتباه شديد حتى إنّ

عيونهـم لاتـكاد تَطْرِف، فأفاض الإمام حسـن فـي الحديث، وفي النهاية قال:

- يكفـي اليـوم هـذا القَدْرُ، لقـد تعلّمنا سـورة الفاتحة وحان الآن موعـد أكل الفاكهـة، اذهـب يا بسـطامي وأحضر الفاكهة من البيت.

مَوقِف غريبٌ

عندما ارتفعت شمسُ الشتاءِ في كبِد السَّماء، جلس خليل أمامَ المدفأةِ الموقدة، وجاءت هِرَّة المنزلِ إلى جانبه، فنصَبَت ذيلَها، وأخذت تحكُّه في يدِ خليل، وتُصْدر مواءً جميلًا، فتذكَّر خليلٌ ما قَصَّتْه له أُمُّه في الخَيْمة عن القِطط.

الهِرَرَةُ حيواناتٌ نظيفة، خجولة، فهي تُخْفي غائِطَها في التراب، أمَّا مُوَاؤها فهو نوع من الذِّكْر، أيْ إنَّ الهرَّ عندما يموء فهذا يعني أنه يقول: «يا رحيم، يا رحيم»! ولعلّ الله تعالى قد منحها صفةً ليست في الحيوانات الأخرى، ألا وهي لو أنك ألقَيْتَ بالهرِّ من أعلى مكان لسقط على أقدامه الأربع.

كانت أمُّه تحبُّ الهررة كثيرًا، وكانت دائمًا تقول: الهرُّ حارس منْزلِنا، وبينما كان يفكر في الهررة، أرادت هِرة أن تريَه نفسَها، فماءَت مُواءً رقيقًا!

خليل:

- تعالَيْ هنا يا «بسبس»...

تمدَّد خليل، وأمسك بالهرة من جانبَي بطنها، واحتضنها، وبدأ يداعِب بأصبعه شَعرَاتِ أنفها الورْدية، فأسعدَها ذلك، فأغْمَضَتْ عينيها، واستسلمَت لحِضن خليل الفيّاض بالشَّفقة.

كانت «بسبس» ستغدو أمًّا قريبًا، فهي حامل؛ وتبدو سمينةً.

وراح خليل يتابع بشغَفٍ تعبيرَ الهرَّة عن شعورها بالأمان، وفجأة تذكَّر الثعلبَ الذي قُبِضَ عليه أمس، فهو سمين أيضًا مثل «بسبس».

هل ضاقت به الغابة الفسيحةُ حتى تجرَّأ على دخول القرية في وَضَح النهار؟ هل جاعَ كلَّ هذا الجوعِ؟ وفي المثل: «الكلبُ الجائع يأتي بفريسته من قاع البئر»؛ خطر هذا المثل على باله، وسبقَ أنْ قرأه في كتبِ الأمثال في المدرسة؛ ثم نهض بلطف كيلا تشعر «بسبس»، واتَّكأ على أريكة بجوار النافذة، ووضع مرفقه على مِخدَّة نُسجت من مادة الحصير، وراح ينظر.

أما «بسبس» فلم تكنْ مسرورةً من تغيير المكان، فهربت من يد خليل ببطء، واتجهت نحو الوسادة عند المدفأة.

خليل:

- يا إلهي! أليس هذا هو الإمامُ حسن؟



استْجمع خليل انتِباهَه، وأعجبه الثلج فراح يتأمله، كان هناك رجلٌ يتَقَدَّم، ويمشي على الثلج متجهًا نحو الغابة، إنَّه الإمام حسن!

وقف خليل على ركبتيه، وفتح النافذة، فَهبَّت ريح عاصفةٌ إلى الدَّاخل، رَطَّبَت عَينَي خليل من تأثير البرودة، وفي هذه الأثناء سَمع صوتَ زوجةِ خالِه:

- يا الله! يا ولد، أجُنِنْت؟ لماذا تفتح النافذة؟ لقد بردنا، أغلقها بسرعة!

لم يسمع خليل كلام زوجة خاله، فهو مندهش بالمكان الذي ينظر إليه، وعندما رأَت زوجةُ خاله ما أصابه من دهشة، وضعت ما في يدها فوق المدفأة، وجاءت إليه، فأسنَدت يدَيها على الأريكة وراحت تنظر، فَرَأَت الرجلَ الذي يسير في طريق الغابة، فغَمْغَمَتْ قائلة:

- آه، إنّه الإمام حسن! ماذا يفعل هناك في هذه الساعة؟

تراجَع خليل إلى الوراء، وقصَّ لزوجة خاله ما حدث أمْس، ثم قال:

- من المحتمل أنه ذاهبٌ إلى الثعلب الذي تركه في الغابة، لكنَّ الجُرحَ الذي أصاب الثعلب كان سيئًا، ولن يتحمَّل هذه البرودةَ بل سيموت.

أغلقت زوجة خالِه النافذةَ، وعادت إلى عملها لَاوِيَةً شفَتَيها، أمّا هو فراح يذاكِرَ دروسَه حتى ملَّ، وبحث عن كتاب يقرؤه، فلم يجِد فملَّ أكثر، فنظر إلى القطة وكأنّه عابس هائم ثم نام.

في تلك الأثناء كانت زوجة خاله تحضِّر الطعام، فالتفتت إليه وقالت:

- هيَّا! اجلس على السُّفْرة، فلنأكلْ شيئًا.

جلسَ خليلٌ على مائدة الطعام على الأرض، ولكنَّه كان يفكّر فى الإمامِ حسن، فصمت طويلًا ثمَّ قال في نفسه:

- لماذا لا أذهب، وأرى ما سيفعله الإمام حسن عن قُرْب؟

وفي هذه الأثناء وصلت «بسبس» إلى حافَّة المائدة، وعينها على الطعام، لا تطرِفُ عنه ألبتة.

مسابقة كُرَات الثلج

حمل الإمام حسنٌ الخُرْجَ على كتفه، وبدأ يسير في الطريق الذي جاء منه وهو يرتل القرآن؛ فانْحنى خليل، واخْتَبأ خلْف الحجر، ونظر خلفه، وقال في نفسه: وَيْلاه!

لقد كانت آثار خليل واضحةً على الثلج، فقال في نفسه: سوف يراها الإمام حسن بعد قليل، فتردد في الخروج من المكان الذي كان يتخفَّى فيه، ثم خرج، وظلَّ في مكانه وهو يقول في نفسه: لننظر ماذا سيحْدث؟

رأى الإمام حسن آثارَ خليلٍ، ونظر نحو الصَّخرة بطرفِ عينِه، لئلا يشعر بنظرته أحد، ولم يُظهر خليل نفسه، إلا أنّ الإمام تأكد من وجود أحدٍ هناك؛ فالآثار كانت تنْتهي عند الحجر، واستمرَّ في السير دون أن يقطع قراءتَه للآيةِ التي كان يرتّلِها.

كان خليل مضطربًا جدًّا؛ لأنه سيلتقي بشخص لا يرغب به، وهو الإمام حسن؛ فهو عندما يراه سيسأله أسئلة كثيرة.



لـم يحـدث مـا توقَّعه خليل، فالإمام حسـن لم ينظر إلى هذا الجانـب المـوازي للصخـرة، ولكنَّ عينه قد لاحَظَته، وهو ما زال يرتل آياتِ القرآن.

راقبَـه خليـلٌ سـاعات، ثم نهـض، وبدأ السَّـيرَ خلْفه، وعندما وصل إلى أوَّل منازل القرية نادى:

- يا عمِّ حسن!

لـم يستطعْ خليـل أن يَتجاهـلَ الأمرَ، وكان قد قرّر أن يسـأله عن سبب مجيئِه إلى هنا.

عاد الإمام حسن، وقال:

- آه، خليل! أنت هنا.

ركـض خليل نحو الإمام حسـن، ونظر إلـى الخُرْج بفضولٍ، وقال:

- يا عمِّ حسن، إني أراك منذ يومين، وأنت تدخل إلى الغابة، ماذا في هذا الخُرْج؟

تبسَّم الإمام حسن، ونظر إلى عَينَي خليل السوداوين مداعبًا شعره، وسأله قائلًا:

- تمشي خلفي، وتراقبني من أجل هذا؟

خليل:

- كم تمنيت أن أعرف: ماذا يمكن أن تفعَلَ في الغابة، وهذا الخُرج على كتِفِك؟ أَحْضرْتَ الطعامَ لذلك الثعلب، أليس كذلك؟

تبسَّم الإمام حسن، ولم يستطعْ أن يجيب على سؤاله؛ وراح يسير من جديد، وتبِعَه خليلٌ.

تَظَاهر الإمامُ حسن، وكأنَّه يتدلَّلُ، فقال:

- إذا كنتَ مشتاقًا حقًّا لمعرفة الجواب؛ فانتَظرني غدًا أمام المدرسة في مثل هذه الساعة.

فرِح خليل وقال:

- حسنًا، سأنْتظِر.

غَيَّرَ الإمام حسنٌ الموضوعَ قائلًا:

- كيف تقضي عطْلتك يا خليل؟

في بداية الأمر، لَوَى خليل شفتَيه، وظهر على وجهه آثارُ الحزْن، ثم أجاب قائلاً:

- إنها مُمِلَّةٌ! ولا يمكن قضاءُ العطْلةِ في مذاكرة الدروس فحسْب.

الإمام حسن:

- هل تقرأ الكتب؟

خليل:

- قرأتُ كل ما في يدي، وانْتهَيتُ من قراءة الكتب الدراسية كلّها، والآن لم يبقَ كتاب أَقرؤه.

- حسنًا، ماذا تفعل سِوى قراءةِ الكتب؟

- أحيانًا أخرج من البيت، ولكنَّ هذا أيضًا غيرُ كافٍ لِتَسْلِيَتي.

فتح الإمام حسن عَينَيه وكأنَّه دُهش كثيرًا، وقال:

- ألا تلعبُ مع أصدقائك؟

خليل:

- لا ألعب معهم.

الإمام حسن:

- لماذا؟ ألا تحبُّهم؟ فجميعهم أولاد طَيِّبون.

- لا، ليس الأمر كذلك، بل أنا أُحبُّهم كثيرًا؛ لكنّي لا أرغب في اللَّعب، وأحيانًا أشاهدهم وهم يلعبون.

كأنّ الإمامَ حسنًا تذكَّر أمرًا فقال:

- هااا، لك عندي مفاجأة، أتمنى أن تعجبَك.

وقف خليل حائرًا أمام هذه الكلمات التي لم يتوقَّعْها، ثم قال:

- مفاجأة، لي؟

أخذ الإمام حسن ثلجًا من الأرض بقدْر كفِّه، وبينما هو يحاول أن يصنعَ كرة من الثلج قال:

- نعم، لك، أَمْ أنَّك لا تحب المفاجآتِ؟ صدِّقني لقد أعدَدْتها من أجلك، وأنا متأكِّد أنك ستفرح عندما تراها.

قذف الإمام حسن كرة الثلج، التي صنعها نحوَ غصنِ شجرة التُّفاح البريِّ على بُعد عشرين مترًا، وكان خليل ينظر إليه بانتباه.

وقعت كرةُ الثلج في منتصف الشجرة، فتحطَّم جزء منها، وعندما التصق جزء منها بالشجرة، قال خليل:



- رميةُ ماهِر.

ضحك الإمام حسن حتى بدت أسنانه الثلجية من أثر السِّواك، ثُم رفع حاجبَيه وقال:

- كأنك تظن أنَّ هذه الرمية أصابت الهدف صدفة!

أحْنى خليل رأسه قليلًا، وكأنه يقول: اقذف مرةً أخرى.

وضع الإمام حسن الخُرْج على الأرض، فإذا بخليل كأنَّه يريد أن يقول شيئًا، فسار نحو خطوةٍ أو خطوتين، ثم جلس على الأرض، وصنعَ ثلاث قِطعٍ أو أربعًا من كرات الثلج، وبينما هو ينْهض على قدميه، كان ينفخ الهواء الساخنَ من أعماقه على كفَّيه المتثلجتين، ثم دَعَك كفَّيه في بعض، وقال لخليل:

- انظر.

ثمَّ قذف كراتِ الثلج التي على الأرض نحو شجرة التُّفاح البريِّ واحدةً تلو أخرى، فأصابت جميعُها أغصان الشجرة.

تبسَّم خليل، لِمَ لا والإمام حسن يبارك بَراعَته؟ ثم قال:

- في الحقيقة لا أعتقد أن هذه الرمية أصابتْ الهدف صدفة، الآن فهمت أنك بارع جدًّا في هذا.

ونزلت كلمات خليل على الإمام كالماء البارد يجده الظمآن، وسار نحو الثلج الذي ما زال حديثَ عهدٍ بربّهِ، فصنع ثلاث كراتِ من الثلج، ثمَّ نادى خليلاً:

- هل يمكنك مساعدتي؟

فدهش خليل، فعاد الإمام حسن وقال له:

- سأتسابق معك الآن، فسنقوم بصنع عشر كرات من الثلج، فأنت ستَقذف خمس كرات وأنا سأقذف خمسًا، ولننْظر من سيفوز؟

لم يتحرك خليل من مكانه، فانتصب الإمام حسن، وقطّب حاجبيه وقال:

- ما هذا؟ هل تخاف؟

جَرى خليل عندما سمع هذه الكلمة، وملأ كفّه بالثلج، ثم صنع خمس كرات ثلجيّة كبيرة.

سأل الإمام حسن خليلاً:

- إذا أردْت فسأخطو خمس خطواتٍ إلى الوراء، ما رأيك؟

أجاب خليل، وهو واثق من نفسه:

- لا داعي لهذا.

وقفا بجوار بعض، وأخذ كلٌّ منهما كرة من الثلج، فقال خليل:

- أنت أولًا.

فخطا الإمام حسن بإحدى قدميه إلى الأمام، وقذف بِكُرةٍ كانت في يده اليمنى وتمتم قائلًا:

- بسم الله.

فأصابت كرةُ الثلج الشجرةَ.

جاء دورك يا خليل! إذا أردْت، فيمكنك أن تتقدَّم خمس خطواتٍ.

لم يردَّ خليل، وقذف كرة الثلج من المكان الذي يقف فيه.

ذهل الإمام حسن وصاح:

- رميةٌ صائبة... أحسنْت يا خليل، ولكن لا تفرحْ كثيراً، فما زالت هناك أربعُ كرات أخرى.

وبينما كان خليل يحاول تدفئةَ يديه بوضعهما تحت إبطيه، رمى الإمام حسن الثانية، وقال:

- يا خسارة!

وبينما خليل يأخذ كرة الثلج من مكانها قال:

- أخطأت الهدفَ يا إمام؛ إذ إنك لم تسمِّ الله هذه المرَّة.

لم يستطع الإمام حسن أن يصيب الهدف رغم أنه صوَّب تصويبًا جيدًا، ثم تابع الإمام حسن رَمَيات خليل بطرف عينه، فقد أصاب خليل الهدف مرةً ثانيةً.

عبَّر الإمام حسن عن إعجابه بخليل، وقال:

- أحسنت يا خليل! لقد أصبت الثانية، فالنتيجةُ اثنان على واحد، أدهشْتَني كثيرًا برميك.

وبينما كان خليل يحاول تدفئةَ يديه قال:

- أنا طفل بدويٌّ، وكنت أرعى الأغنام في المروج، وكانت هذه هي تسليتي الوحيدة؛ لذا فإن يدِي معتادةٌ على إلقاء الحجارة، والآن جاء دورُك.

قاموا بقذف ثلاثِ كرات أخرى، فأخطأ الإمام حسن إحدى هذه الضربات مرةً أخرى، فقال خليل وهو فرِح:

- النتيجة خمسة على ثلاثة يا عمّ حسن، فأنا الفائز.

دُهش الإمام حسن من مهارة خليل، ثم قال:

- أحسنت يا خليل، ففي الحقيقة أنت تصوِّب ضرباتِك بشكل صحيح، وأنا واثق أن أصدقاءَك لم يعرفوا مهارتك هذه.

سكت خليل، أمَّا الإمام حسن فقد صرَّح بخِطَّةٍ خطرت على باله للتوِّ، فقال:

- وجدنا لعبةً جديدةً، وكنت من قبل أنزعِج وأقول: عندما يحل الشتاء لن نستطيع لعب الكرة مع الأطفال.

نظر خليل بشوق إلى الإمام حسن، وكأن الإمام حسنًا سيقول شيئًا مهمًّا.

الإمام حسن:

- تعال اليوم بعد العصْر إلى السَّاحة التي خلف المسجد، فسنَقوم بمسابقة لقذف كرات الثلج على شجرة الدّلب، وأنا سأخبر الأطفال الآخرين، ولَو حدَّدْنا جائزةً كبرى، فهذا سيكون

مشجِّعًا جدًّا، ما رأيك؟ هل تتسابق مع الأطفال الآخرين؟

تبسَّم خليل قائلًا:

- نعم، أتسابق.

فرح الإمام حسن لأنّ خليلًا قبِل رأيه، وحمَلَ الخُرْج، وقال:

- هيا يا خليل! فسوف أُؤَذِّن لصلاة الظهر، وسنتحدّث في الطريق.

تابعَا السَّير معًا، ولما وصَلا مدخَلَ القرية، همّ خليل بأن يذهب فناداه الإمام حسن:

- لا تَنْسَ، سنَنْتظرك اليوم بجوار شجرة الدّلب؛ وإذا كنت مشتاقًا لمعرفة سبب ذهابي إلى الغابة، فانتظرني غدًا أمام المدرسة.

هزَّ خليل رأسه، وقال:

- حسنًا.

- مع السلامة يا خليل، لقد أسعدني كثيرًا ما فعلْناه اليوم، فإدخال السرور على قلوب الأطفال شيء عظيم عند الله... ثمَّ افْترقا.

هدية

اجتمع أطفال القريَةِ في السَّاحة خلفَ المسجدِ، وكان الجوُّ مُشمِسًا، وغطَّى المكانَ ثَلْجٌ نَاصِعُ البَياضِ، وراح الأطفال يتصارعون فيرمي بعضُهم بعضًا على الثَّلج ويلْهُون كثيرًا، ولما صاحَ بسْطاميٌّ:

- الإمامُ حسَنٌ قادمٌ، تَجمَّعوا وركَضوا نحوه لِيسْتقبلوه.

ثم جَمَع كلُّ طفلٍ خمسَ كراتٍ من الثَّلج، وبَدَؤوا يقذفونها نحْوَ شجرةِ الدُّلب.

ها هم الأطفالُ يقذفون كراتِ الثلجِ بكلِّ قوة نحو الشَّجرة، والكبار يُشَاهِدونَهم باستِمْتاع، فلما انتهت المسابقة تقدَّم الإمام حسنٌ، وأعلَن مَن الفائز:

- مباركٌ عليك يا خليل، أنت الوحيدُ الذي أصبت جميعَ الأهدافِ.



كانـوا جميعًـا ينظـرُون إليـه بإعجابٍ، فقد تَفاجـؤوا بمهارته، وزاد عَطْفُهم على الطفل القرَويِّ المحبوب، سُمِع صوتُ الإمام حسن مرةً أخرى وهو يقول:

- سنُكَرِّمُه بجائزة اليومَ في المسجد بعدَ صلاة المغرب.

تفرق الأطفال، وعادوا قُبَيْل غروبِ الشـمس، كان المسـجد فـي مسـاء هـذا اليـومِ أكثرَ ازدحامًا من أيِّ وقـتٍ آخرَ، فهذا اليوم لـه ميـزةٌ عظيمـة؛ فخليلٌ حضر الصلاةَ مع الجماعة، وكان يلتفت حولَه باستِمْرارٍ مثل حمامة خائفة وسطَ الجمْع، ولم يكن يعرف ماذا عليه أن يفْعل عندما وقف للصلاة خلفَ الإمامِ حسـن، لقد فاتَتْـه تكبيـرةُ الإحْـرام، نظر بخـوف إلى بَسْـطامِي بجانبه، وعندما ركـعَ المصَلُّـونَ قلَّدهـم، وكانت وِقفتُه عجيبةً جِدًّا، ثُمَّ انتهوا مِن الصـلاة، وبـدا مُرْتَبـكًا جـدًّا، فلـم يؤدِّ صـلاةَ السُّـنَّةِ، وراح يراقب حركاتِ مَن حَولَه بطَرف عيْنِه من تسـابيحَ ودعاءٍ وتضرُّعٍ... نعم شـاهد صـلاةَ أُمِّـه من قبْل، ولكنَّه لم يشـاهد الصـلاةَ باهتمامٍ أبدًا كما يرى الآن.

خـرج المصَلُّـون مـن المسـجد بهُـدوء، وبقِـي الإمـام حسـنٌ والأطفـال فقَـط فـي المسـجد، وعندمـا خـرج آخِـر رجـلٍ مـن

المسجد، قام الإمام حسن، ونظر إلى الأطفال مبْتسمًا، ولما رأى خليلًا قال:

- يا أولاد! لكم عندي مفاجأةٌ.

فرح الأطفال فرحًا عظيمًا، واتَّجه الإمام حسن نحو السِّتار الأخضرِ بجانب المحراب، وأكمل حديثه:

- تحت هذا السِّتار كنْزٌ، وأعلم أن بعضَكم سيفرح كثيرًا عندما يراه، ولكنْ أقولُ لكم مِن الآن: إنَّ هذا الكنزَ ملكٌ لخليل.

نظرَ خليل بتعجُّب إلى السِّتار، وفكَّر في نفسه: يا تُرَى ماذا تحت هذا السِّتار؟

لم يشأ الإمامُ حسن أن يُلهِبَ شوْقَ الأطفال أكثر، بل سحب السِّتار بيده، فإذا بمكتبة قيّمة... مكتبة مكونة من خمس طبقات، ويبلغ طولُ كلّ رفّ منها مترًا، كانت الرُّفوف ملأى بالكتب، فيها كتب أطفال، متعددةُ الألوان، فكان الأطفال ينظرون بإعجاب إلى الكتب الموضوعةِ على الرفوف.

دعا الإمام حسن خليلًا وقال:

- كلُّ هذه الكتب لك يا خليل، فأنا أعرف كم تحبّ قراءة

الكتب، ولا يُهدَى لمن يحب القراءة سوى الكتب، فمُنْذ ثلاثةِ أشهرٍ وأنا أعمل على توفير هذه الكتب لك؛ وأمَّا المكتبةُ فأَعَدَّها أحد أصدقائي من أهل الخير، فهذا كلُّه لك.

تحَيَّرَ خليل كثيرًا، فكان ينظر إلى الإمام حسن مرَّةً، وإلى الكُتُبِ مرّةً أخرى.

الإمام حسن:

- كنت أنتظر مجيئَك إلى المسجد بفارغِ الصبر يا خليل، وها قد جئْتَ... أتمنى أن تأتيَ دائمًا؛ لأنَّ هذا هو بيت اللهِ تعالى، والله سبحانه وتعالى يدعو الناسَ إلى بيته فى كل وقت وحين.

صمَتُوا جميعًا، وكانوا ينظرون إلى خليل، فسُمِعَ صوتُ بسطامي وهو يقول:

- إنها كتبٌ رائعة جدًّا يا خليل، فهل تأذن لنا بقراءتها؟

توجَّه خليل نحو المكتبةِ فمَدَّ يده، وأخذ كتابًا من الرَّف، ونظر إلى غِلافِه الأخضرِ، فإذا بالإمام حسن يقول:

- ألَّفَ هذا الكتابَ قبلَ مئاتِ السنين رجلٌ... اسمه «هايي»، فهو يحكي قصَّةَ طفلٍ وجَد نفسه على جزيرة نائية وهو رضيع،

رَعَتْهُ غزالةٌ حتَّى كَبِر، وعندما كبِر أدرك أنه مختلفٌ عن الكائنات الأخرى، فأخذ يفكر ويبحث عن خالقه، وفي النهاية عرَف أنّ خالق هذا الكون هو الله ربّ العالمين.

تأثَّر خليل، وفكَّر في نفسه قائلًا:

- هذه ليست صدْفةً، فما أشبهَ خليلًا بهايي...، تبسَّم ثم قال للإمام حسن:

- أشكرك يا أستاذي، ولكنِّي أرغبُ أن يشاركَني جميع الأصدقاء في هدِيَّتي هذه.

نظر الإمام حسن بحُبٍّ وقال:

- نعم، بارك الله فيك، هذا سيُسعِد أصدقاءَك كثيرًا.

رَكَض الأطفال نحو الكتبِ بسرور، وبينما يتصفَّح كلُّ واحدٍ منهم الكتابَ الذي بيده، قال خليل:

- يا أستاذي، لِنَضَعْ دفترًا هُنا، ولنَكتب أسماءَ الكتب التي استعارها أصدقاؤنا لنعلمَ من قرأ أكثر.

شعر الإمام حسن بسعادة كبيرة، وقال:

- إذا قرأتـم هـذه الكتب، فسأُحْضر لكم كتبًا أخرى، اِقرَؤوا أنتم، وعليّ شراء الكتب.

فرح الأطفال فرحًا عظيمًا، وكان الإمام حسٌن أسعدَ منهم، فهؤلاء الصِّغارُ سيملؤون المسجد قريبًا، وسيَطَّلِعون على مكتبة المسجد.

نعم، فالمساجد في تاريخنا كانت مدارس يتعلَّم فيها أطفالنا العلومَ كلّها.

الشعور بالرحمة

كان خليلٌ يقف أمام باب المدرسة صباحًا، ويقفز في مكانه ليدفئ جسمه البارد، وبينما هو على هذه الحال، إذا به يَرَى الإمام حسنًا قادمًا نحوه.

الإمام حسن:

- السلام عليكم يا خليل.

خليل بكل أدب واحترام:

- وعليكم السلام يا أستاذي.

كان الإمام يحمل بيده كيسًا وعلى كتفه خُرْجًا، فقال:

- أيمكنك مساعدتي يا خليل؛ فأنا لا أستطيع حمل الخُرْج على كتفي إلا بصعوبةٍ بالغة؟

خليل:

- على الرحب والسعة يا سيدي.

حمل خليلٌ الخُرْجَ، ومشى خلف الإمام حسن، وهو يتحسس الكيس بأطراف أصابعه محاولًا معرفة ما بداخله.

الإمام حسن:

- هل قرأت كتاب «هايي» يا خليل؟

رفع خليلٌ رأسَه ونظر إلى الإمام قائلًا:

- إنها أجمل قصةٍ قرأتُها في حياتي، بل شعرت أنني قرأتُها في نفَس واحد، لقد تأثرت بها كثيرًا!

التفت الإمامُ حسن إلى خليلٍ سائلًا:

- ما هي أكثرُ حادثةٍ أثَّرت فيك يا خليل؟

خليل:

- كل جملةٍ كانت تعني لي الكثير، ولكنني تأثرت بـ «هايي» كثيرًا، فحياته تشبه حياتي في كثيرٍ من الوجوه.

الإمام حسن بدهشة يسيرة:

- ماذا يعني هذا؟

صمت خليل برهةً، ثم أجاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مؤلمة:

- أنا أيضًا كنت أعيش في غابة نائية، بلغت السابعة ولم أقابل أيَّ شخصٍ سوى أبي وأمي، عشت طَوال هذه الفترة وحيدًا لا أجد من أتحدث إليه سوى الأغنام. وهنا يكْمُن وجه الشبه بيني وبين «هايي»، فهو أيضًا عاش طفولته وحيدًا، لا يجد من يتحدث إليه سوى الغزالة، كانت كالأمّ له؛ وبعد عدة سنوات، تعرف «هايي» على معلِّمه «أبسال»، فعرَّفه بخالقه عزَّ وجل.

وهنا تلعثم خليل بعض الشيء، ونظر إلى الإمام حسن برهة، فتوقف الإمام حسن، وتلاقت أعينهما في نظرةٍ مِلؤُها المحبة والحنان، وكأنّ خليلًا يقول فيها لأستاذه:

- أريد أن أكون مثل «هايي» في هذا أيضًا، فأنت عندي بمنزلة «أبسال» لدى «هايي».

وهنا دمعت عينا الإمام متأثرًا بهذا الكلام دون أن يُظهر ذلك لخليل، وخيَّم الصمت على المكان حتى دخلا الغابة، ووصلا المكان الصخري، وقطع الإمام هذا الصمت قائلًا:

- ها قد وصلنا.

تلفَّت خليل حوله، فلم يلاحظ أيَّ شيءٍ ملفتٍ للنظر، فسأل متعجبًا:

- ماذا هنا يا أستاذي؟

تقدَّم الإمام حسن ببطءٍ نحو الكهف الصغير في عُمْقِ المكان الصخري، وهو يحمل الخُرْج على كتفه، وكان خليلٌ يتابعه بحذر، فهمس الإمامُ قائلًا:

- الثعلب!

ارتعد خليلٌ وبدأ قلبه يخفق، وراح يدقق النظر ليتحقق من الأمر، وإذا هو بثعلبٍ صغيرٍ عند فتحة الكهف، فقال خليل في نفسه: يا الله ما هذا؟!

أفرغ الإمام حسن العظام التي أخرجها من خُرْجِهِ فوق الثلج، ثم قال:

- إنه صغير، كم هو جميل؟ إنه خلق الله الذي أحسن كل شيءٍ خَلَقَه، أليس كذلك؟

كان خليلٌ ينظر إلى الثعلب بإعجابٍ شديد، وكان الثعلب يراقبهما بحذر.

مدَّت الأمُّ رأسها من خلفه، فهمس خليلٌ:

- لقد أمسك العمُّ محرم بهذا الثعلب.

وهنا تراجعا إلى الوراء ببطءٍ، وانطلقا خلف المكان الصخري وهما يراقبان الطيور.

خليل:

- إلى أين نذهب الآن؟

أشار الإمام حسن إلى الصخر قائلًا:

- هيا يا خليل، اصعد إلى أعلى الصخر، وفرّغِ الكيس الذي في يدك هناك.

انطلق خليل بدون تردُدٍ، وبدأ يتسلق الصخر حتى وصل القمة، وبدأ ينظر إلى ما حوله بدقة، فلم يلاحظ أيَّ شيءٍ غريبٍ، وقال متعجبًا:

- لا شيءَ هنا!



الإمام حسن:

- أفرِغ الكيس يا خليل، سيأتون بعد قليل.

فَكَّ خليلٌ خيط الكيس بفمه، وعندما رأى ما فيه تَمْتَم قائلًا: إنه قمح، ثم بدأ ينثُرُ القمح حوله، والتبس عليه الأمر، ثم نزل.

الإمام حسن متبسمًا:

- الآن انتهى عملنا اليومي، إذا أردت أن تأتيَ معي غدًا فأهلًا وسهلًا بك يا خليل، الآن دعنا نعود إلى القرية.

انطلقا نحو القرية وفي أيديهما الكيس والخُرْج الفارغان، وكان يدور في ذهن خليل أمور يودُّ أن يسأل عنها، وإذا بالإمام حسن يبدأ الحديث قائلًا:

- هذا الثعلب أمٌّ كبقية الأمهات، وهي مضطرة -بعاطفتها وحنانها ورأفتها- لرعاية صغارها، وإذا حال الثلج بينها وبين طعام صغارها اضطرت للنزول إلى القرية؛ فحنان الأم يجعلها تُعرِّض نفسها للمخاطر من أجل سعادة أطفالها.

انحنى الإمام حسن وأخذ بعض الثلج من الأرض، فأذابه في فمه وشرب.

- هل تعلم يا خليل أني أؤمن أنّ كل قطعة ثلج يأتي بها ملَكٌ من السماء؟ فالثلج رحمةٌ مثل المطر يا خليل، فهو يشبه الأرض التي تستر البذور ثم تنشق لتتنسم البذور عبير الحياة، وهذا الأمر له معنى عميق في نفسي، وكرات الثلج هذه لا تشبه واحدة منها الأخرى، فكل واحدة تحمل أثر المَلَك الذي نزل بها، فهي مختلفةٌ عن بعضها، لذلك أنا أحبّ الثلج.

كان خليلٌ يستمع إلى الإمام حسن بدهشة.

- سأستمر فى وضع الطعام على أطراف الغابة للحيوانات حتى يذوب هذا الثلج يا خليل، فهذا هو واجبنا الإنساني، وسأنثر القمح على الجبال كيلا يجوع طير في الشتاء، فقد قال رسولنا الحبيب ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»؛ لا يمكننا أن نترك حيوانات مسكينة تصارع الموت وحدها يا خليل. الحمد لله الذي هداني لهذا العمل، ولو استطعت لوضعت الطعام فى أطراف الغابة كافّة حتى يذوب الثلج.

كان خليلٌ ينظر إلى الإمام حسن متعجبًا، وقد فُتن بمشاعر هذا الإنسان ورحمته.

ولما خرجا من الغابة التفت الإمام حسن وراءه، وأشار مبتسمًا إلى صخرة تبدوا لهما قمّتها من بعيد:

- انظر يا خليل.

التفت خليلٌ ببطء، ونظر إلى المكان الصخري الذي أشار الإمام حسن إليه، فإذا ببعض الطيور الكبيرة تستعد لالتقاط القمح الذي ألقاه خليل على التلّ قبل قليل.

- إنّها رحمة المؤمن بالحيوان يا خليل، و«**الراحمون يرحمهم الرحمن**»[1] .

---

(١) من حديث نبوى رواه الترمذى

لقد وصلتُ

ها هو ذا الإمام حسن قد ملأ صوتُ أذانه الحزين فضاءَ قريةِ نَوَى، وبدأ الثَّلج يتساقط بكثافة، فاستيقظ الناس من نومهم، واستعدُّوا للذَّهاب إلى المسجد رغْم البرْد الشديد والثلج.

أذَّن الإمامُ حسنٌ لصلاة الفجر؛ ثم أشعل المِدفأة، فدَفِئَ المسجد قليلاً، وبدأ الناس يأتون واحداً تلو الأخر، ثمَّ أقاموا الصلاة، فلما صلّوا جلسوا حِلَقًا حولَ المدْفَأة كما هي عادتهم دائماً، ودارَت مناقشةٌ مفيدةٌ في أمور الدين، ثمّ تفرَّقَتِ الجماعةُ، وخرَجَ الإمام حسن بعدهم، وظلَّ واقفًا أمام المسجد؛ نظر إلى شجرةِ الدّلب المرتفعة فوق رأسه، كانت أغصانها متدليّة، وحَبّات الثلج تتقاذف بين تلك الأغْصانِ التي سقَطتْ أوْراقُها، فلمّا رأى الإمام حسن هذا المنظر الرائع قال:

- ربّي الذي خلق حباتِ الثلجِ العظيمةَ هذه، ونزَّلها على وجه الأرض، هو أرحم الراحمين، ربِّ اغفر لي ولوالدَيّ ولأهلي، ولأبناء بلدتي، ولعبادك جميعًا، وأنزل البركة على أرضنا بهذا الثلجِ.

ثم مسح الإمام حسن بيده حباتِ الثلجِ المتساقطةَ على وجهه، وسَمِع صوتاً يقول:

- لقد وصلْتُ يا عمّ حسن!

الْتفتَ الإمام حسن فجأةً، ونظر إلى صاحب الصوت، وقال:

- خليل!

كان خليل ينظر إليه مبتسِمًا، ومعه المصحفُ الشريفُ، وقِصَّةٌ تحتَ إبْطِه، وثلجٌ على رأسه، فقال:

- جئْتُ لصلاة الفجر، وأحضرت حكاية هايي أيضًا لِأَرُدَّها إلى مكتبة المسجد، وآخُذ حكايةً جديدة، أَلَا تُعلِّمُني القرآنَ الكريم يا عمّ؟

دُهش الإمام حسنٌ، وأشار بيده في الهواء، وقال:

- فات وقتُ الصلاة يا خليلُ، إذًا هيّا نَقْرأ معًا القرآنَ



الكريم، فدَخلا إلى المسجد، وكانت قلوبهما تخفق سرورًا.

وما تزال حبَّات الثلجِ تتساقط، وكأنّ كل حبّة منها يَنزِل بها مَلَك من السماء ليقول للناس: هذا الثلج من رحمة الله بعباده، فارحموا الخلْقَ جميعًا، فالراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وساعدوهم؛ فالخلقُ كلُّهم عباد الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعباده.

ملاحظاتي حول الكتاب